رأي جديد في

كتب الادب العربي القديمة

لمصطفى صادق الرافعي (١)

أدب الكاتب لابن قُتَيْبَة من الدواوين الاربعة التي قال ابن خلدون فيها من كلامه على حَدّ علم الادب : « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعلم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعةُ دواوين : وهي أدبُ الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرِّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة فتبعٌ لها وفروع عنها » وقد يظن أدباء عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمنه وقومه وانها توجّه على طريقة من قبلهم في طَبَقَة بعد طبقة الى أصول هذه السلسلة التي يقولون فيها حدثنا فلان عن فلان الى الاصمعي أو أبي عُبَيْدة أو أبي عمرو بن العلاء وغيرهم من شيوخ الرواية ونَقَلَة اللغة ، ولكنها لا تستقيم في آدابنا ولا تعدُّ من آلاتنا ولا تقع من مَعَارفنا بل يكاد يذهب من يَتَقَعَّرُ منهم بالآراء الاوربية التي يسميها علمهُ ... ومن يَسْتَرسِلُ الى التقليد الذي يسميه مذهبَه .. الى أن تلك الكتب وما جرى في طريقتها هي أمواتٌ من الكتب وهي قبور من الاوراق ، وأنهُ يجب أن يكون بيننا وبينها من الاهمال أكثر مما بينها وبيننا من الزمن ، وأن بعثَ الكتاب منها وإحياءه يوشك أن يكون كبعث الموتى علامةً على خراب الدنيا ...

فأما أن يكون ذلك علامةً على خراب الدنيا فهو صحيح اذا كانت الدنيا هي محرر جريدة ... من أمثال اصحابنا هؤلاء . وأما تلك الكتب فأنا أحسبها لم توضع إلا لزمننا هذا ولأدبائه وكُتّابه خاصة ، وكأن القدر هو أثبت ذلك القولَ في مقدمة ابن خلدون لينتهي بنصّه الينا فنستخرج منهُ ما يُقيمنا على الطريقة في هذا العصر الذي وقع أدباؤه في متسع طويل من فنون الادب ومُضْطَرَب عريض من مذاهب الكتابة وأفْق لا تستقرّ حدوده من العلوم والفلسفة . فان هذه المادة الحافلة من المعاني تحيي آداب الامم في أوربا وأمريكا ولكنها تكاد تطمس آدابنا وتمحقنا محقاً تذهبُ فيه خصائصُنا ومُقَوِّماتُنا وتُحيلنا عن

(١) بعث الفاضل حسام الدين القدسي بطبع شرح أدب الكاتب للامام ابي منصور الجواليقي فالتمس من الاديب الكبير مصطفى صادق الرافعي أن يضع مقدمة للكتاب فكتب هذه المقالة الفريدة في بلاغتها وسداد رأيها وصدق عاطفتها وضمنها رأياً طريفاً في كتب الادب العربي القديمة يجدر بكل أديب أن يتدبره ويأخذ به لنسترجم من إشطلل الادبي الفاشي الآن بأقبح مظاهره

اوضاعنا التاريخية وتفسد عقولنا ونزعاتنا وترمي بنا مراميها بين كل أمة وأمة حتى كأن ليست منا أمة في حيزها الانساني المحدود من ناحية بالتاريخ ومن ناحية بالصفات ومن ناحية بالعلوم ومن ناحية بالآداب . ومن ذلك ابتلي اكثر كتابنا بالانحراف عن الادب العربي أو العصبية عليه أو الزراية له ومنهم من تحسبه قد رمي في عقله بهوسه وحماقته ، ومنهم من كأنه في حقده سليخ قلبه ، ومنهم المقلد لا يدري أعلى قصد هو أم جور ، ومنهم الحائر يذهب في مذهب ويجيء من مذهب ولا يتجه لقصد، ومنهم من هو منهم وكفى ...

وقلما تنبه أحد الى السبب في هذا والسبب في حقارته وضعفه «كالمكروب» بذرة طامسة لا شأن لها ولكن متى تنبت تنبت أوجاعاً وآلاماً وموتاً وأحزاناً ومصائب شتى

السبب أن اولئك الادباء كلهم ثم من يتشيع لهم او يأخذ برأيهم ليس منهم واحد ترى في أساسه الادبي تلك الاصول العربية المحضة القائمة على دراسة اللغة وجمعها وتصنيفها وبيان عللها وتصاريفها ومطارح اللسان فيها . والمتأدية بذلك الى تمكين الادب الناشىء من اسرار هذه اللغة وتطويعها له فيكون نيماً بها وتكون هي مستجيبة لقلمه جارية في طبيعته مسددة في تصرفه . حتى اذا نشأ بها واستحكم فيها احسن العمل لها وزاد في مادتها وأخذ لها من غيرها وكان خليقاً أن يعد فيها ويحسن الملاءمة بينها وبين الآداب الاخرى ويجعل ذلك نسجاً واحداً وبياناً بعضه من بعض فينمو الادب العربي في صنيعه كما تنمو الشجرة الحية تأخذ من كل ما حولها لعنصرها وطبيعتها وليس الا عنصرها وطبيعتها حسب

ان ادب الكاتب وشرحه هذا للامام الجواليقي وما صنف من بابهما على طريقة الجمع من اللغة والخبر وشعر الشواهد والاستقصاء في ذلك والتبسط في الوجوه والعلل النحوية والصرفية والامعان في التحقيق . كل ذلك عمل ينبغي أن يعرف على حقه في زمننا هذا فهو ليس ادباً كما يفهم من المعنى الفلسفي لهذه الكلمة بل هو أبعد الاشياء عن هذا المعنى فانك لا تجد في كتاب من هذه الكتب الا التأليف الذي بين يديك ، اما المؤلف فلا تجده ولا تعرفه منها الا كالكلمة المحبوسة في قاعدة .... وكأنه لم تكن فيه روح انسان بل روح مادة مصمتة وكأنه لم ينشأ ليعمل في عصره بل ليعمل عصره فيه وكأن ليس في الكتاب جهة انسانية متميزة ثم تأليف ولكن ابن المؤلف ، وهذا كتاب ابن قتيبة ولكن أين ابن قتيبة فيه ؟

وما اخطأ المتقدمون في تسميتهم هذه الكتب أدباً فذلك هو رسم الادب في عصرهم غير ان هذا الرسم قد انتقل في عصرنا فانا نحن المخطئون اليوم في هذه التسمية كما لو ذهبنا نسمي الجمل في البادية الا كسبريس والهودج عربة بولمان ...

ومن هذا الخطأ في التسمية ظهر الادب العربي لقصار النظر كأنه تكرار عصر واحد

على امتداد الزمن ، فان زاد المتأخر لم يأخذ الامن المتقدم وصارت هذه الكتب كأنها في جملتها قانون من قوانين الجنسية نافذ على الدهر لا ينبغي لعصري أن الاّ أن يكون من جنس القرن الاول . . . هذه الكتب من هذه الناحية كالحل يسمّى لك عسلاً ثم تذوقه فلا يجني عليه عندك الاّ الاسم الذي زُوِّر له . أما هو فكما هو في نفسه وفي فائدته وفي طبيعته وفي الحاجة اليه لا ينقص من ذلك ولا يتغير

الحقيقة التي يبينها الوضع الصحيح أن تلك المؤلفات إنما وُضعت لتكون أدباً لا من معنى أدب الفكر وفنه وجماله وفلسفته بل من معنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها وإقامتها . فهي كتب تربية لغوية قائمة على اصول محكمة في هذا الباب حتى مايقرؤها أعجمي الا خرج منها عربيًّا او في هوى العربية والميل اليها . ومن اجل ذلك بُنيت على اوضاع تجعل القارئ المتبصّر كأنما يصاحب من الكتاب أعرابيًّا فصيحاً يسأله فيجيبه ويستشهد به فيرشده ويخرّجه الكتاب تصفّحاً وقراءة كما تخرجه البادية سماعاً وتلقيناً ، والقارئ في كل ذلك مستدرَج الى العرب في مَدْرَجة مدرجة من هوى النفس وحبّها تصنع به تلك الفصولُ فيها دُربت له مثلما تصنع كتب التربية في تكوين الخلق بالاساليب التي أُديرت عليها والشواهد التي وضعت لها والمعالم النفسية التي تمثّلت فيها

ومن ثم جاءت هذه الكتبُ العربية كلها على نسق واحد لا يختلف في الجملة فهي أخبار وأشعار ولغة وعربية وجمع وتحقيق وتمحيص ، وانما تتفاوت بالزيادة والنقص والاختصار والبسط والتخفيف والتثقيل ونحو ذلك مما هو في الموضوع لا في الوضع حتى يخيل اليك ان هذه كتب جغرافية للغة والفاظها واخبارها اذ كانت مثل كتب الجغرافية متطابقة كلها على وصف طبيعة ثابتة لا تتغير معالمها ولا يخلق غيرَها الاّ الخالق سبحانه وتعالى

واذا تدبرتَ هذا الذي بيناه لم تعجب كما يعجب المتطفلون على الأدب العربي والمتخبطون فيه من ان يروا ايمان المؤلفين متصلاً بكتبهم ظاهر الاثر فيها وانهم جميعاً يقررون انما يريدون بها المنزلة عند الله في العمل لحياطة هذا اللسان الذي نزل به القرآن الكريم وتأديته في هذه الكتب الى قومهم كما تؤدّى الامانة الى اهلها حتى لولا القرآن لما وضع من ذلك شيء البتة

وأنا المحُ دائما العاملَ الالهيَّ في كل اطوار هذه اللغة وأراه يديرُها على حفظ القرآن الذي هو معجزتها وأرى من أثره مجيء تلك الكتب على ذلك الوضع وتسخيرَ تلك العقول الواسعة من الرواة والعلماء والحفّاظ جيلاً بعد جيل في الجمع والشرح والتعليق بغير ابتكار ولا وضع ولا فلسفة ولا زيغ عن تلك الحدود المرسومة التي اومأنا الى حكمتها ولو انه كان فيهم مجددون ... من طراز اصحابنا ... ثم ترك لهم هذا الشأن يتولونه كما

ترى بالنظر القصير والرأي المعاند والهوى المنحرف والكبرياء المصمتة والتقول على الحاجس والعلم على الوهم ومجادلة الاستاذ حَيْصَ للاستاذ بَيْصَ ... إذن لضرب بعضهم وجه بعض وجاءت كتبهم متدابرة ومسخ التاريخ وضاعت العربية وفسد ذلك الشأن كله فلم يتسق منه شيء

ومما تردُّه على قارئها تلك الكتب في تربيته للعربية أنها تمكّن فيه للصبر والمعاناة والتحقيق والتورك في البحث والتدقيق في التصفح وهي الصفات التي فقدها أدباء هذا الزمن فأصبحوا لا يتثبتون ولا يحققون وطال عليهم ان ينظروا في العربية وثقل عليهم أن يستبطنوا كتبها . ولو قد تربوا في تلك الاسفار وبذلك الاسلوب العربي لتمت الملاءمة بين اللغة في قوتها وجزالتها وبين ماعسى ان ينكره منها ذوقهم في ضعفه وعاميته وكانوا أحق بها وأهلها

وذلك بعينه هو السر في أن من لا يقرؤن تلك الكتب أول نشأتهم لأراهم يكتبون إلا بأسلوب منحط ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غث ولا يرون في الادب العربي إلا آراء مُلتوية ثم هم لا يستطيعون ان يقيموا على درس كتاب عربي يُسائلون أنفسهم ويحكمون على اللغة والادب بما يشعرون به في حالتهم تلك ويدوِّرطون في اقوال مضحكة وينسون أنه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور مادام الشعور يختلف في الناس باختلاف أسبابه وعوارضه ولا من ناحية يجوز ان يكون الخطأ فيها وهم أبداً في إحدى الناحيتين او في كلتيها

***

وهذا شرح الجواليقي من أمتع الكتب التي أشرنا اليها وصاحبه هو الامام موهوب ابو منصور الجواليقي المولود في سنة ٤٦٥ للهجرة والمتوفي سنة ٥٤٠ وهو من تلاميذ الامام الشيخ أبي زكريا الخطيب التبريزي أول من درس الادب في المدرسة النظامية ببغداد(١) وقرأ الجواليقي على شيخه هذا سبع عشرة سنة استوفى فيها علوم الادب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها ثم خلف شيخه على تدريس الادب في النظامية بعد علي بن أبي زيد المعروف بالفصيحي . وما نشك إن هذا الشرح هو بعض دروسه في تلك المدرسة فأنت من هذا الكتاب كأنك بازاء كرسي التدريس في ذلك المهد تسمع من رجل انتهت اليه إمامة اللغة في عصره فهو مدقق محيط مبالغ في الاستقصاء لا يندُّ عنهُ شيء مما هو بسبيله من الشرح معني بالتصريف ووجوهه مما انتهى اليه من أثر الامام بن جني فيلسوف هذا العلم في تاريخ الادب العربي فان بين الجواليقي وبينه شيخين كما تعرف من اسناده في هذا الشرح

وقد قالوا ان أبا منصور في اللغة أمثلُ منهُ في النحو على إمامته فيهما معاً إذ كان يذهب في بعض علل النحو الى آراء شاذة ينفرد بها وقد ساق منها عبد الرحمن الانباري مثلين في كتابه نزهة الالباء ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته ان يكون في

(١) انشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي المتوفى سنة ٤٨٥

الطبقة العليا من أئمة العربية . وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب في التحري والتدقيق حتى كان من أثر ذلك في طباعه أن اعتاد التفكير وطول الصمت فلا يقول قولاً إلا بعد تدبر وفكر طويل فان لم يهتد الى شيء قال لا أدري وكثيراً ما كان يسأل في مسألة فلا يجيب إلا بعد أيام. وكان ورعاً ذوي الايمان انتهى به ايمانه وعلمه وتقواه الى ان صار استاذ الخليفة المقتفي لامر الله فاختص بإمامته في الصلوات وقرأ عليه المقتفي شيئاً من الكتب وانتفع بذلك وبان اثره في توقيعاته كما قالوا

والذي يتأمل هذا الشرح فضل تأمل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجل احصاء في اللغة لا يفوته شيء مما عرف الى زمنه وهو ولا ريب يجري في الطريقة الفكرية التي نهجها ابن جني وشيخه ابو علي الفارسي ومن اثر هذه الطريقة فيه انه لا يتحجّر ولا يمنع القياس في اللغة ويلحق ما وضعه المتأخرون بما سمع من العرب ويروي ذلك جميعه ويحفظه ويلقيه على طلبته .ومن امتع ما جاء من ذلك في شرحه قوله في صفحة ٢٣٥ وهو باب لم يستوفه غيره ولا تجده الا في كتابه وهذه عبارته : قولهم يدي من ذلك فَعِلة ، المسموعُ منهم في ذلك الفاظ قليلة وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك فقالوا : يدي من الإهالة سَنِخة ، ومن البيض زَهِمة ومن التراب تَرِبة ومن التين والعنب والفواكه كَتِنة وكَدِة ولزجة ، ومن العشب كَتِنة ايضاً ، ومن الجبن نَسِمة ، ومن الجص شهرة ومن الحديد والشبه والصُّفر والرصاص سَهِكة وصدئة ايضاً ، ومن الحمأة رَدِغة ورَزِغة ، ومن الخضاب رَدِعة ، ومن الحنطة والعجين والخبز نَسِفة ، ومن الخل والنبيذ خمطة ، ومن الدبس والعسل دبقة ولزقة أيضاً ، ومن الدم شحطة وشرقة ، ومن الدهن زنخة ، ومن الرياحين زَكِية ، ومن الزهر زهِرة ، ومن الزيت قنمة ، ومن السمك سهكة وقرة ، ومن السمن دَسِمة ولسمة وغمة ، ومن الشهد والطين لثِقة ، ومن العطر عطِرة ، ومن الغالية عبقة ، ومن الفيلة والقدر وحِرة ، ومن الفرصاد قنئة ، ومن اللبن وضِرة ، ومن اللحم والمرق غمِرة ، ومن الماء بللة وسبِرة ، ومن المسك ذفرة وعبقة ، ومن النتن قنمة ، ومن النفط جدة انتهى

فالمسموع من هذه الالفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعاً فما زاد والباقي كله أجراه علماء اللغة وأهل الأدب على القياس فأبدع القياس منها أربعاً وثلاثين كلمة . ولو تدبرت كيفية استخراجها ورجعت الى الاصول التي أجريت فيها لا يقنت أن هذه العربية هي أوسع اللغات كافة وانها من أهلها كالنبوة الخالدة في دينها القوي تنتظر كل جيل بآي كما ودعت كل جيل غير لأنها الانسانية لهؤلاء وهؤلاء

ان ظهور مثل هذا الشرح كالتوبيخ لأكثر كتاب هذا الزمن أن اقرؤا وادرسوا وخصّوا لغتكم بشطر من عنايتكم وربوا لها بتربيتها في مدارسكم ومعاهدكم واصبروا على معاناتها صبر المحب على حبيبه ، فان ضعفتم فصبر البارّ على من يلزمه حقه ، فان ضعفتم عن هذا فصبر المتكلف المتجمل على الاقل ....

مصطفى صادق الرافعي